النظام المنهار

تونس:

مسؤولية القوى الثورية تتصاعد مع اشتداد عزلة النظام

تنشر « الهدف » ابتداء من هذا العدد مجموعة من المقالات حول الوضع في تونس وبالتحديد حول وضع المناضلين النقابيين المنتمين في قضية جريدة الشعب السرية الناطقة باسم الاتحاد العام التونسي للشغل الشرعي والذين تم اعتقالهم خلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٧٨، وبدأت محاكماتهم في ١٩ تموز المنصرم في المحكمة الابتدائية بتونس ، وتم تأجيلها الى ١١ آب الجاري .

وفي هذه المحاكمات رفضت السلطة طلب الدفاع باطلاق سراح الموقوفين ولو مؤقتا . وجدير بالذكر ان « جمعية اصدقاء تونس الماضلة » وهي جمعية فرنسية تساند النقابيين الموقوفين ، و« جمعية القانونيين الديمقراطيين» كلفتا محاميا فرنسيا لمتابعة القضية. وسيقوم هذا المحامي بتقديم تقرير عن زيارته وعن وضع المساجين ، سننشره في حينه .

مثلما يعيش رئيسه ايامه الاخيرة ، يعيش النظام البورقيبي العميل فترة مرض خطيرة لا يمكن لاي قوة ان تنقذه منها ، مهما تفننت في المغالطة ومهما بذلت من جهد لترميم اركان السلطة المتهاوية . هذا المرض المضني الذي يعيشه النظام سيؤدي حتما الى اندثاره وبدفعنا للتساؤل عن الذي تغير في هذا النظام ، حتى يدعي البعض انه يتجه الى « الاعتدال والتفتح » ويطالب بكل وقاحة بتحقيق مطلب « ديمقراطي » كبير متمثل في السماح بتعدد الاحزاب في ظله ؟

يبدو ان الذي تغير هم هؤلاء الذين يدعون المعارضة وخدمة الشعب ...

من المعلوم ان حزب هذا النظام هو بصدد تحضير مؤتمر له سيف يكون فرصة تتساقط فيها الرؤوس وتتآكل الطغمة الدموية في صراع بين دعاة الدكتاتورية العسكرية الخالصة ودعاة الدكتاتورية البوليسية العسكرية تحت راية الحزب ، بالرغم من الجهود التي تقوم بها هذه الطغمة لتظهر بمظهر التجانس والوفاق امام الرأي العام المحلي والعربي والعالمي ، وفي التأكيد الكاذب على « السلم الاجتماعي المطلق » الذي تعيشه تونس وان « شرذمات تصطاد في الماء العكر للنيل من مكاسب الامة والشعب وقائده المجاهد الاكبر ... » (الى اخر المعزوفة) . لكن لسوء حظ الطغمة الدموية ان هذه « الشرذمات » شاع عددها وفكرها لدرجة انها باتت تمثل الاغلبية الساحقة من الشعب .

واضافة الى الصراع المرتقب سيخرج هذا المؤتمر بسياسات وتوجهات تبقى — ما دام الحزب باقيا في السلطة — معادية للشعب والوطن والامة العربية ، جاعلة من تونس مركزا للنهب والاستغلال الامبريالي الرجعي . فاين هو تفتح النظام واين هو اعتداله ايها السادة المتشدقين بتعدد الاحزاب في ظله ؟

ها هي الاحداث تأتي — وبسرعة لا ترحم — لتكذب هذه المزاعم التي راح بعض المتساقطين يروجونها. فلقد واصلت اجهزة القمع مهمتها وبنفس درجة العنف والحقد التي غرفت بها ، وتابعت فرق البوليس مهمتها في ملاحقة المواطنين وتنظيم حملات التوقيف الجماعي ومحاصرة الاحياء بحثا عن المناضلين واختطاف الشباب .

ومن ناحية اخرى ارتفعت اسعار المواد والسلع الاستهلاكية رغم ما قيل حول مباحثات شهر (ابريل) بين « الاطراف الاجتماعية » (السلطة والاعراف والقيادة البوليسية لعبيد وغيرها من المنظمات المسماة « قومية ») وما روج من دعاية حول الزيادة الاخيرة للاجور . وجاءت مباحثات امتحانات اخر السنة لتملأ البيوت التونسية بأجواء الحقد على السلطة ، وتدعم جيش العاطلين الاوفر من المطرودين . وواصل — في نفس الوقت — جهاز « العدالة الدستورية » مهمته المعادية للوطن والشعب عكانت المحاكمات الصورية التي حاكمت على وتيرة متناسقة منذ المحاكمات الكبرى الشهيرة (محاكمة باجة وماطر) ... ثم جاءت محاكمة مناضلي حزب الشعب الثوري التونسي والتي نطق فيها النظام احكاما قاسية ضد العديد من المناضلين في تونس وخارجها كان ذنبهم الوحيد هو وقوفهم الصادق الى جانب الشعب الفلسطيني ومساندتهم الصادقة التي دفعتهم الى الدفاع عن الشعب وممارسة حقوقهم المشروعة التي ضحى من اجلها العديد من ابناء شعبنا . والتاريخ يشهد على ذلك بصفحات عديدة كتبها الشهداء والمساجين والمطاردين والمعذبين والمشردين . ثم جاءت محاكمة جريدة الشعب السرية لتضع من جديد مسألة الاتحاد وحرية العمل النقابي على السطح بعد ان ظن البعض انه ارتاح منها منذ زمان . وتعالت اصوات جريئة المناضلين للتنديد بوحشية التعذيب والمعاملة اللاانسانية التي لاقوها على ايدي الجلادين المكونين في مدارس الحقد على الشعوب ، الامريكية الصنع والتدريب المذهب . تلك المعاملات التي تعبر عن حقد الطغمة الدموية على ابناء الشعب الاوفياء . واضيفت الى تلك الاجرام ماجة اخرى في سجل البوليس والسفاكين بمحاولتهم تسميم الحبيب عاشور الكاتب العام للاتحاد العام التونسي للشغل السرعي بعد ان عجزوا عن اخضاعه لارادتهم . مرتبطوا هكذا بماضيهم المظلم البعيد والقريب — ماضي الاغتيالات والتصفيات الجسدية والقتل والتنكيل بالمعارضين — وواصلت الايادي الملطخة بدماء شهداء يوم ٢٦ كانون الثاني ٧٨ ضرباتها لكل ما هو وطني وتقدمي رافضين خناقها على الاصوات الحرة التي تعبر عن آراء مختلفة عن آراء السلطة والرجعية . كل هذا يدل دلالة قاطعة على مواصلة النظام غطرسته وتعنته الرجعي وسياسته المعادية للشعب ويدل ايضا على انه بعيش عزلة خانقة تقبض بخناقه يوما بعد يوم لان نظاما متآكلا ومعتدلا كما يزعم البعض لا يلجأ — في اي حال — الى هذه الاساليب اللاانسانية والقمعية لضمان بقائه .

عزلة الطغمة الدموية متواصلة ...

يعيش النظام عزلة خانقة رغم محاولاته المتعددة لشراء ضمائر المتخاذلين الذين رسم لهم مهمة محددة تتمثل في العمل على تبييض وجهه لدى الجماهير وتزداد هذه العزلة حدة رغم كل ما يقوم به عملاؤه الاصلاحية من مجهودات لفك الحصار عليه والبحث مخرج له بالمراهنة على شق صف احزاب يدعوك ان نوبرة رجل « متفتح » . انها قمة الافلاس السياسي حين ينسى هؤلاء الجماهير او بالاحرى لا يتذكرونها الا لصدها عن النضال الجذري او المتاجرة باسمها. لفائدة مصالح اخرى بعيدة عن ان تمر عن مطامحها. وهكذا يرتمون في احضان الرجعية تحت تنظيرات مختلفة تتلون بشتى الالوان منها المتطرف «يسارا» والمتطرف « يمينا » ومنها الليبرالي فما والمعتدل شكلا . هذا بدعوى التكتيك والاخر بدعوى المعقولية والرزانة . التكتيك البعيد عن الجماهير والرزانة التي تريد ابعاد الجماهير .

وبالفعل فان مقاومة الشعب متواصلة ونضالاته تتصاعد وتتراكم وقد حفلت الاشهر الماضية بالعديد من الاضرابات التي خاضها العمال والفئات الاخرى من شعبنا .

كما واصل النقابيون المخلصون مهماتهم التي تعهدوا بها في « المجلس القومي » وفي اجتماعات الهيئة الادارية للاتحاد العام التونسي للشغل التي التأمت قبل ٢٦ كانون الثاني والمتمثلة في مقاطعة القيادة البوليسية « لعبيد » والمطالبة باطلاق سراح المعتقلين النقابيين والسياسيين والتمسك بالاتحاد الشرعي وهياكله ومقرراته والالتزام بالدفاع عن مصالح الجماهير المادية والادبية . ولا ادل على ذلك من التصريحات والبيانات المتعددة المنبثقة عن الاطر الشرعية للاتحاد وايضا عرائض الاحتجاج التي توقعها المئات تعبيرا عن تمسك النقابيين بمنظمتهم النقابية ودفاعا منهم عن استقلالية الاتحاد والدستور . وكذلك نضالات النقابيين في العديد من القطاعات والجهات لاحباط مناورات « عبيد » الهادفة ادخال دم جديد في الجسم المتهالك للهياكل المتصبة التي يقودها . هكذا التزم كل المناضلين الصادقين والنزهاء بالعهد الذي اعلنوا عنه سابقا وواصلوا نضالهم من اجل عزل هذا النظام المقيت شر عزلة وتوفير الظروف السانحة للخلاص منه .

واذا كان مفروغا منه القول بان الحركة الثورية مشتتة وضعيفة فان هذا الكلام وهذه البديهية يجب ان لا تصبح عقبة بل — وامام تطور الاوضاع وقراءة علمية للواقع — لا بد لهذه الحركة الثورية الضعيفة ان تتحمل مسؤولياتها الفعلية في الالتحام بالجماهير والانصهار فيها لتوعيتها وعيا ثوريا ولابد لها ان تعمل على كسب العناصر العمالية المتقدمة لافكار الثوري بما يحتمه من ضرورة وحتمية القضاء على سلطة الاستغلال والاضطهاد وبناء مجتمع الديمقراطية الشعبية المتحول نحو الاشتراكية . ومن البديهي ان هذا العمل لا يمكن ان يكون واقعيا نضاليا حيا الا اذا استند الى برنامج ثوري يبعديه الاستراتيجي والتاكتيكي .

وبالطبع فانه على اساس مثل هذا البرنامج يمكن للصراع السياسي والايديولوجي — بل يجب عليه — ان يتطور لانه الضمان الوحيد لفرز الخطأ من الصح والزيف من الحقيقي . وهذا بالفعل ما يقوم به المناضلون الوطنيون الديمقراطيون رغم الضربات القاسية التي تلقوها من قبل السلطة ورغم هجمات الاصلاحية المتكررة . ان ضعف الحركة الثورية نسبي وهو رهين وضعها وطبيعتها واختياراتها . فاذا حصل ان اختارت الحركة الثورية الانغلاق على نفسها والبكاء على مصيرها الحالي او انها لم تحاول فهم الوضع فهما علميا وواقعيا او انها ترفض بشكل من الاشكال التحول من مواقعها الضيقة حاليا الى مواقع اوسع نطاقا واكثر مواجهة فانها لا تقدر حتما لا على قيادة الجماهير فحسب بل وحتى على ضمان نفسها كحركة ثورية .

ان ضعف الحركة الثورية (وبالتالي عزلتها عن الجماهير) لا يمكن مقارنتها بعزلة النظام ذلك ان عزلتها نسبية وظرفية اما عزلة النظام فهي مطلقة ومزمنة .

ان ما هو جلي اليوم في تونس العربية ان الظروف الموضوعية ناضجة لكي تتحمل الحركة الثورية مسؤولياتها التاريخية لا من اجل اسقاط النظام فحسب بل وايضا من اجل صد الجبهة الاصلاحية . ان ما هو واضح هو خوض الصراع السياسي والايديولوجي بالدفاع على برنامج الثورة الوطنية الديمقراطية بقيادة الطبقة العاملة وحزبها في خضم النضالات الجماهيرية وليس بعيدا عنها .

ولم تكن العزلة الداخلية للنظام هي وحدها الفاعلة بل زادت وضعية النظام تفاقما على المستوى الخارجي بوقوف قطاعات واسعة من الرأي العام العالمي بجانب شعبنا ولم تنجح محاولات السلطة الدموية في اضفاء وجه « مشرف » لها . ولا ادل على ذلك مما وقع اخيرا في اجتماع الجمعية العالمية للشغل .

وبالرغم من التطورات الاخيرة الحاصلة على صعيد تونس والمتمثلة في انتخاب الشاذلي القليبي امينا عاما للجامعة العربية الا ان هذا الحدث لا يمكن له ان يمسح ما اقترفه النظام من جرائم في حق الشعب وهو وفي افضل الحالات سيمكن الطغمة الدموية من دعم رسمي يساعدها على حل بعض المشاكل الاقتصادية او التي تتعلق ببعض القضايا السياسية في الوطن العربي وفي افريقيا لكن ذلك لا يعدو الا غطاء عربيا رسميا يضمن لها مساعدة اكثر الانظمة العربية رجعية ومعاداة للعروبة. وبالفعل فان النظام البورقيبي سيحاول استغلال هذه الورقة وهو الذي ناهض — وما يزال — بكل قواه كل نفس تقدمي ونضالي عند الشعب العربي بتونس وكل الشعوب العربية الاخرى .

من السجن الصغير الى السجن الكبير

في محاولة لتنفيس السخط الشعبي على اسلوب نظام البوليس ، اصدر بورقيبة أمرا بالافراج عن الحبيب عاشور وثمانية رفاق له بمناسبة « عيد ميلاده » .

هذا الافراج لا يغير شيئا في حياة النقابيين التسعة الذين انتقلوا من سجن صغير الى سجن كبير ، حيث تفرض عليهم قيود تمنعهم من العودة الى مزاولة نشاطاتهم النقابية والسياسية .

واذا كان للافراج عن عاشور رئيس الاتحاد العمالي العام صدى ما في الاوساط الشعبية ، فان جماهير تونس تنتظر اليوم التي تتاح الفرصة فيه لالاف المعتقلين والمخطوفين للعودة الى حياتهم الطبيعية .

علما ان المناضلين التسعة الذين افرج عنهم يعانون من حالات صحية سيئة جدا ، كانت وراء عملية الافراج عنهم .

مناورات النظام ...

ومهما يكن من امر فان هذه الوضعية سوف لن تدوم طويلا لان ما تعيشه البلاد من وضع متفجر ومن ازمة خانقة — المسؤول الرئيسي عنها هو النظام العميل — يحتم على الطغمة الدموية ان تواصل مناوراتها الرجعية ضد شعبنا وكل الشعوب العربية. سواء كان ذلك على الصعيد العربي في قيادة ركب التسوية الاستسلامية وضرب قضية التحرر الوطني في الوطن العربي وفي فلسطين خاصة او على الصعيد الداخلي بما تقوم به من حملات لاثارة الفتنة ضد الشعب العربي الليبي الشقيق . وذلك تطبيقا لحلم قديم لها (وعزيز بصورة خاصة على العسكريين وعبدالله فرحات بالخصوص) والقاضي بالاعتداء على ليبيا الى جانب النظام الساداتي الخائن .

ان هدف السلطة هو ايجاد مخرج لها يمكنها من فك العزلة التي تعيشها داخليا وخارجيا . فهي تضع على كاهل الجماهير كل نتائج السياسة الرجعية التي تنتهجها سواء على مستوى الاقتصاد او السياسة او الاوضاع الاجتماعية والثقافية من ناحية وهي لا تتأخر في الدخول في حروب قاتلة ورجعية للفتك بالجماهير العربية ولفت نظر الرأي العام الداخلي وامتصاص نقمة الجماهير الشعبية التي تناضل من اجل حقوقها. وكسب الدعم من قبل الرأي العام العالمي — والامبريالي منه خاصة — باظهار نفسها في خدمة « العالم الحر » ذلك انها تصارع نظام القذافي المعروف « بارهابه » و « بمساندته لقوى الارهاب العالمية » على حد زعم تلك القوى الامبريالية والرجعية من ناحية اخرى .

ولا يمكن في مثل هذه الحالة ان يصدق الانسان « الاعتدال » و « التفتح » المزعومين لهذه الطغمة الدموية ولا حتى شقا منها . فهي عصابة ارهابية مغامرة مثل كل العصابات الاجرامية التي عرفها التاريخ تأكل بعضها البعض وتفتك وتقتل لمصالحها .

ان منطق الرجعية في الاوضاع الراهنة عربيا ودوليا ومحليا بصورة عامة ومنطق الطغمة الدموية البورقيبية بصورة خاصة هو تصعيد العنف الرجعي من اجل الدفاع عن كيانها المسخر لخدمة اسيادها الامبرياليين. وبالتالي فان منطق الجماهير لا يمكن ان يكون الا النضال ، النضال المتواصل من اجل الحرية والكرامة والسيادة الوطنية من اجل اسقاط حكم العملاء والخونة والرجعيين وتشييد حكم الشعب والكادحين .

— وطني ديمقراطي —